

لَفْظَةُ (اَسْتَوَى) بَيْنَ اسْتِعْمَالِهَا اللَّغَوِيِّ وَالسِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ

عبد العالي مُوسَاوي
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة -

الملخص:

لَا يَخْفَى عَلَى الْقَارِئِ مَا حَصَلَ لِلْأَلْفَظِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ تَطَوُّرٍ دَلَالِيٍّ عَنِ الْعُصُورِ؛ إِذِ ابْتَعَدَتْ هَذِهِ الْأَلْفَظُ إِلَى حَدٍّ مَا عَنِ أَصْلِهَا اللَّغَوِيِّ وَخَرَجَتْ لِدَلَالَاتٍ مَجَازِيَّةٍ؛ بَلْ خَرَجَتْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ إِلَى دَلَالَاتٍ يُمْكِنُ أَنْ تُسَمِّيَهَا سَلْبِيَّةً؛ كَمَا هُوَ حَالُ مَوْضُوعِ الْمَقَالِ، فَلَفْظُ (اَسْتَوَى) أَصْلُ دَلَالَتِهِ الْمَرْكَزِيَّةِ: الْعُلُوُّ وَالْارْتِفَاعُ وَالْاِعْتِدَالُ وَالْمَسَاوَاةُ، فَإِذَا خَرَجَتْ الدَّلَالَةُ إِلَى (اَسْتَوَى) أَصْبَحَ التَّمَحُّلُ ظَاهِرًا فِي إِخْرَاجِ الدَّلَالَةِ الْهَامِشِيَّةِ عَنْ أَصْلِهَا الَّذِي وَضَعَتْ لَهُ السِّيَاقُ يَثْبِتُ فُسَادَ هَذَا الرَّأْيِ فِي إِظْهَارِ مَعْنَى لَفْظِ (اَسْتَوَى) الَّذِي هُوَ فِي الْأَصْلِ ذُو دَلَالَةٍ مُغَايِرَةٍ تَمَامًا لَجَذْرِ الْكَلِمَةِ الْمُرَادِ بَيَانُهَا وَهِيَ (اَسْتَوَى).

Abstract

It is not clear to the reader what has happened to the Arabic words of evolution is indicative through the ages; these words moved away to some extent from the origin of the language and came out of the signs of metaphor; but came out in some cases to indications can be called negative; as the case of the article, The origin of /the word (stabilized) and its central significance: height, height, moderation and equality. And the context proves the corruption of this opinion in showing the meaning of the term (seized), which is originally quite different from the root of the word to be shown (stabilized).

تمهيد:

القرآن الكريم كان وما زال يمثل مرجعية الفكر والحضارة العربية الإسلامية، ومحور ثقافته، فكل علوم العربية قديما وحديثا إنما أسست من أجل بيانه وكشف درره وأسرار إعجازه، بل هي اليوم تستمد كل علومها وأدائها منه؛ لأنها تغني بإزاحة الستار عن جماليات النص ورفعته مضامينه. والقرآن هو النور والبرهان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء: 174)

وبيان: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: 138) عكف المفسرون وأئمة اللغة وأرباب البلاغة شرحا وتحليلا وإيضاحا وتعليلا، فقد هيمن على مساحة واسعة من جهودهم العلمية وإنجازاتهم الفكرية في التصنيف والتدوين والتنظير، ذلك بان التعبير القرآني لم يستحوذ على قلوب الناس وعقولهم من جهة الإيمان به

فَحَسْب، بل لأنه كلام الله المعجز: بل من جهة السمو والرفعة لهذا الخطاب القرآني ووضعه المتميز في تشكلات بنيت النص انسجاما واتساقا ودلالة؛ إن هذا التفرد في توظيف الكلمة ذات الدلالة المعجمية توظيفاً دقيقاً، ذات البناء المحكم المتوازن (صوتياً وصرفياً وتركيبياً ودلالة) واختيارها دون غيرها في النص والتركيب له الأثر الأكبر في تحدي فطاحلة اللغة وعماققة الفصاحة والبيان . أضف لذلك ما للسياق -القرآني خاصة -من دور كبير في تحديد وإيضاح دلالة المفردة القرآنية؛ لأننا لو تركنا هذا اللفظ فإن فيه دلالات مكثرة ؛ لا تظهر ولا تنكشف إلا به- السياق- فهو الحكم في توجيه وتحديد "دلالة الكلمة على وجه الدقة وبوساطته تتجاوز كلمات اللغة حدودها الدلالية المعجمية المألوفة لتفرض دلالات جديدة قد تكون مجازية، أو إضافية، أو نفسية، أو إيحائية، أو اجتماعية"¹

لذا قال الزركشي (794 هـ): "دلالة السياق ... ترشد إلى تبيين المجهل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ... انظر إلى قوله تعالى: "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ" (الدخان: 49) كيف نجد سياقه يدل على أنه الدليل (الحقير)². من هنا نرى أن الدلالة السياقية للعبارة - الآية- تتكون من معاني الألفاظ التي تتألف منها وكيفية استعمالها النص، فاللفظة ليس لها إلا معنى واحداً يحدده السياق ؛ لـ: "أن معنى الكلمة في المعجم متعدد ومحتمل ولكن معنى اللفظ في السياق واحد لا يتعدد بسبب ما يأتي؛ أ- ما في السياق من قرائن تعين على التحديد "وقد سبقت الإشارة إلى القرائن المقالية".

ب- ارتباط كل سياق بمقام معين يحدد في ضوء القرائن الحالية³ وتأسيساً على ما تقدم فإن السياق هو الأداة الفعالة والكاشفة عن مضمون المفردة اللغوية إذا ما انتظمت في العبارة أو الآية. وتطبيقاً لهذا المنظور ستتولى هذه الدراسة تتبع دلالات لفظية (استوى) في الذكر الحكيم وبيان ما للسياق من أثر بارز في تحديد دقة دلالتها ، لكن أولاً يجب تتبع دلالة اللفظ في المعاجم العربية التي تُعتبر: "المادة الأصل والمصدر الرئيس الذي يُستعان به في تفسير وفهم الألفاظ ؛ إذ تعد الصورة المعجمية لأي لفظ من ألفاظ اللغة العربية الصورة الأساسية والدلالة الأولى لهذا اللفظ"⁴ ويُستعان به في الوصول للدلالة الاصطلاحية أو السياقية.

1- لفظ (استوى) في المعجمات العربية:

ورد في لسان العرب أن: "(استوى) على الفرس استقرّ و(استوى) المكان اعتدلو(سويته) عدلته و(استوى) إلى العراق قصدوا(استوى) على سرير الملك كناية عن التملك وإن لم يجلس عليه"⁵؛ و"رجل سوي الخلق أي مستو واستوى من اعوجاج واستوى على ظهر دابته أي استقرّ. وسوى بينهما أي سوى. (واستوى إلى السماء) قصد. واستوى أي استولى وظهر. قال الشاعر: قد استوى بشر على العراق... واستوى الرجل انتهى شبابه"⁶؛ ثم يطالعنا الأزهرى بدلالات أكثر وأوسع حيث نقل عن الفراء رحمه الله أنه قال: "الاستواء في كلام العرب على جهتين إحداهما أن يستوي الرجل وينتهي شبابه وقوته أو يستوي من اعوجاج، فهذان وجهان، ووجه ثالث أن تقول: كان فلان مقبلاً على فلان ثم استوى عليّ والي يثاتمي، على معنى: أقبل إليّ وعليّ، فهذا معنى قوله تعالى(ثم استوى إلى السماء)والله أعلم...وقال ابن عباس رضي الله عنه: (ثم استوى إلى السماء) صعد، وهذا كقولك للرجل: كان قائماً فاستوى قاعداً، وكان قاعداً فاستوى قائماً وكلّ في كلام العرب جائز. وقال الأخفش: استوى أي علا، ويقول: استويت فوق الدابة وعلى ظهر الدابة: أي علوته. وقال الزجاج: قال قوم في قوله عز وجل: (استوى إلى السماء)ثم عمد وقصد إلى السماء...وقول ابن عباس في قوله: (ثم استوى إلى السماء) أي صعد"⁷، نجد ابن فارس يضبط دلالة الجذر (سوي) فقال: "السين والواو والياء أصل يدل على استقامة واعتدال بين شيئين"⁸ قال تعالى: "فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى" أي: المستقيم. ونخلص من هذا أن عمل ابن فارس من "إرجاع اللفظ إلى أصله اللغوي"، وهو نهج انتهجه في معجمه في تفسير دلالات المفردات الواردة فيه، إذا حاول فيه ربط المعاني الجزئية(الهامشية) بمعنى أصلي عام يحكمها(الدلالة المركزية)، أو دلالات مختلفة"⁹

و أروّد المعجم الوسيط دلالة (استوى) بمعنى: " استقام واعتدل والشيئان تساويا...وعلى كذا أو فوقه علا وصعد واستقر وثبت وعليه استوى وملك ويقال استوى على سرير الملك أو على العرش تولى الملك وإليه قصد وتوجه"¹⁰. عند التتبّع واستقراء كلام العرب نستنتج أن لفظاً استوى تحمل عدة معان ودلالات لا تخرج عن: العلو والارتفاع والاستقرار والإقبال والقصد.

هذا في المعجم الذي عاداته سرد الدلالات الاحتمالية لأي لفظ. والسّياق هو الكفيل بتحديد الدلالات المناسبة في التركيب وإعطاء حياة جديدة للفظ

بعد أن كان في انفراد وعزلته عن السياق والقرائن ، لذا سنتبع لفظ استوى دلالة في الاستعمال القرآني في بعض الآيات الواردة في الذكر الحكيم قصد إخراج الدلالة المقصودة من الكلمة.

2- لفظ (استوى) في الاستعمال القرآني

بادئ ذي بدء وفي تحليل بعض الآيات لنا وقفة ننبه من خلالها على تفسير لفظ (استوى) ذات الدلالة الإيجابية بدلالة تخالفها تماماً والمتمثلة في (استولى) الدالة على القهر والغلبة فـ "استولى على الأمر واستوى إذا غلب عليه" ¹¹ بل جعل دلالة للفظ لا تمت له بصلة يعد عجباً و"منكر عند اللغويين قال ابن الأعرابي العرب لا تعرف (استوى) بمعنى (استولى) ومن قال ذلك فقد أعظم قالوا، وإنما يقال استولى فلان على كذا إذا كان بعيداً عنه غير متمكن منه ثم تمكن منه ، والله عز وجل لم يزل مستولياً على الأشياء والبيتان لا يعرف قائلهما كذا قال ابن فارس اللغوي؛ ولو صحاً فلا حجة فيهما لما بينا من استيلاء من لم يكن مستولياً" ¹² وهل كل من استوى استولى على ذاك الشئ وغلبه؛ بل الاستواء في اللغة "الاعتدال، والاستقامة، قاله في الكشف، ويطلق على الارتضاع، والعلو على الشئ، قال تعالى " فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك" [المؤمنون : 28] وقال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف : 13] وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية" ¹³ و " الرحمن : رفع على الابتداء واللام للعهد والإشارة إلى الموصول، والخبر قوله تعالى : " على العرش استوى" وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذي شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للإيدان بأن ذلك أمر بين لا سثرة به غني عن الإخبار به صريحاً، وعلى متعلقه باستوى قدمت عليه لمراعاة الفواصل" ¹⁴ لرحمن "أبلغ من (الرحيم)، لكثرة حروفه، مختص بالله تعالى" ومبالغته إما بالكمية لكثرة أفراد الرحمة، وأفراد المرحوم، أو بالكمية لتخصيصه بجلال النعم وأصولها المستمرة وتقديمه على الرحيم في البسملة، لاختصاصه به تعالى" ¹⁵ وفي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ العرش أضيف للذات العلية ؛ والعرش في لغة العرب بمعنى: " السرير للملك" ¹⁶ إن صيغة الرحمان على وزن "فعلان" دالة على «السعة والشمول» ¹⁷ والعموم قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: 156) "وسعت في الدنيا البر والبحر" ¹⁸ والمحسنوا المسمى فهو «الرحمان لجميع الخلق... الرحيم بالمؤمنين خاصة» ¹⁹ وكثيراً ما تقرر "الرحمان" باستوائه على العرش كقوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: 05) ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ (الفرقان: 59) ف"استوى على عرشه باسم الرحمان، لأن العرش

محيط بالمخلوقات قد وسعها... فاستوى على المخلوقات بأوسع الصفات²⁰ فقريئة السياق دلت على العموم والشمول والسعة. إضافة إلى ما قد قاله ابن فارس في تحديده لأصل الجذر (عرش) كما هي عادته: "العين والراء والشين أصل صحيح واحد، يدل على ارتفاع في شيء مبني، قال الخليل: العرش؛ سرير الملك. وهذا صحيح، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف 100]"²¹ كما "تستعمل على للاستعلاء كثيرا"²²؛ حاشا أن يحدث تناقض في الذكر الحكيم يذكر اسمه الرحمان من الرحمة التي وسعت كل شيء والاستعلاء بحرف الجر والعرش أعظم المخلوقات ثم - على حد تعبير من حاد في ضبط الدلالة- يأتي بالغلبة والقهر - حاشاه- بل تختار المفردة بدقتي، حتى أنه لا يمكن أن تشترك معها في الدلالة ولو كانتا من نفس الجذر فضلاً أن تكون بديلتها كما نص عن ذلك الخطيب الإسكافي (420هـ)^(٢)، لذا ناسب فاصلة الآية الاستواء والعلو، فالمتتبع للدلالة الكلمات وفي الآية السابقة وكلام أصحاب المعاجم يرى أنه لا مجال لقول أن (استوى) بمعنى (استولى) الدالة على الغلبة والقهر. بل فلندقق في سياق الآية ألم يقل سبحانه أنه ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى﴾ (طه: 4) ما تعني تنزيلاً؟ إنها: "كلمة صحيحة تدل على هبوط شيء ووقوعه"²³. والنزول ضد العروج «عرج الملائكة والروح إليه» وأصل العروج "الارتقاء"²⁴ ولمن ترتقي الملائكة إذن؟ بل قد قالها الباري واضحاً حينما ألهم عيسى عليه السلام بالقرب منه منزلته ورفعت فقال: "ورافعك إلي" آل عمران/55. إن الله خاطب العرب بلغتها لتفهم مراده من كلامه سبحانه، أما في السنة ففي حديث: "حتى استوى على البيداء أهل هو وأصحابه"²⁵ وقوله:

"قلما استوى على راحلته دُعاً بإناء" ولما استوى على ظهر الدابة "استوى على الصخرة" وإذا استوى على بغيره "أيمكن أن يقول أنه استولى كما ذهب لذلك الراغب الأصفهاني في مفرداته: "ومثي عدي بـ (على) اقتضى معنى الاستيلاء، كقوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه/5]"²⁶، ولو رجعنا لنص كلامه قبل

أسطر من هذا الثقل لوجدته يصرح أن لجذر (استوى) وهو (سوا) دالتين هما: "الأولى: المساواة، والأخرى: اعتدال الشيء في ذاته"²⁷ قلما أراد شرح الآية حاد عن ضبطه للمعنى فقال بالاستيلاء في موضع العلو؛ علو الرفعة والقدر له سبحانه وأنه أخبر عن ذاته العلية بصفة دالة على تنزيهه وتشبيهه؛ يقول العلامة الطاهر بن عاشور (1393هـ): "والاستواء حقيقته الاعتدال، والذي يؤخذ من كلام المحققين من علماء اللغة والمفسرين أنه حقيقته في الارتفاع والاعتلاء، كما في قوله تعالى في

صِفَةِ جَبْرِيلَ فَاسْتَوَى ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: 6-8] وَالْإِسْتِوَاءُ لَهُ مَعَانٍ مُتَفَرِّعَةٌ عَنْ حَقِيقَتِهِ، أَشْهَرُهَا الْقَصْدُ وَالْإِعْتِلَاءُ، وَقَدْ التَزَمَ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْقُرْآنِ مُسْتَنَدًا إِلَى ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ عِنْدَ الْإِخْبَارِ عَنْ أَحْوَالِ سَمَاقِيَّةٍ، كَمَا فِي هَذَا الْآيَةِ²⁸؛ كَمَا يُذَكِّرُ دَاوُدَ الْأَصْبَهَانِي أَنَّهُ قَالَ: "كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ: فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: مَا مَعْنَى «الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»؟ فَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: هُوَ عَلَى عَرْشِهِ كَمَا أَخْبَرَ: فَقَالَ أَبَاعِبْدُ اللَّهِ إِنَّهُ مَعْنَاهُ: اسْتَوَى، فَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: وَمَا يَدْرِيكَ؟ الْعَرَبُ لَا تَقُولُ اسْتَوَى عَلَى الشَّيْءِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مُضَادٌّ، فَأَيُّهُمَا غَلَبَ فَقَدْ اسْتَوَى"²⁹ كَمَا وَجِبَ أَنْ نُرَدِّدَ مَا يَدْحُضُ الدَّلَالَةُ السَّلْبِيَّةُ عَنْ لَفْظٍ قَدْ نَطَقَتْهُ الْعَرَبُ بِسَجِيَّتِهَا دَالٌّ عَلَى الْإِعْتِدَالِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْعُلُوَّ وَالِارْتِفَاعَ: مَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ النَّضْرِ قَالَ: "سَمِعْتُ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ صَاحِبَ اللَّغَةِ يَقُولُ: أَرَادَنِي ابْنُ أَبِي دَوَادٍ- الْقَاضِي الْمَعْتَزَلِي- أَنْ أَطْلُبَ لَهُ فِي بَعْضِ لُغَاتِ الْعَرَبِ وَمَعَانِيهَا، «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» (اسْتَوَى بِمَعْنَى) (اسْتَوَى): فَقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ لَا يَكُونُ هَذَا وَلَا وَجِدْتُهُ"³⁰، وَنَقَلَ شَيْخُ الْعَرَبِيَّةِ "الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ أَتَيْتُ أَبَا رُبَيْعَةَ الْأَعْرَابِيَّ وَكَانَ مِنْ أَعْلَمَ مَنْ رَأَيْتُ وَكَانَ عَلَى سَطْحٍ فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ أَشْرْنَا إِلَيْهِ بِالسَّلَامِ فَقَالَ اسْتَوُوا فَلَمْ نَدْرِ مَا قَالَ: فَقَالَ لَنَا شَيْخٌ عِنْدَهُ يَقُولُ لَكُمْ ارْتَفَعُوا، قَالَ الْخَلِيلُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ يَقُولُ: ارْتَفَعَ"³¹

كَذَلِكَ بِنَفْسِ الدَّلَالَةِ لِلْفَرْقِ فِي سُورَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ إِيَّاهُ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا أَنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ الْآيَةِ (3-4). أَيْضًا فِي قَوْلِهِ فِي سُورَةِ "الْفُرْقَانِ" ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (58، 59). هُنَا مَا سَبَقَ مِنَ الْآيَاتِ عَدِي الْفَرْقِ بِـ (عَلَى) فَدَلَّ عَلَى الْمَعْنَى الْأَصْلِي لِلْفَرْقِ وَهُوَ الْعُلُوُّ وَالِارْتِفَاعُ وَالِإِعْتِدَالُ. ذَاكَ أَنَّ دَلَالَةَ الْفَرْقِ قَدْ وَرَدَتْ فِي مُخْتَلَفِ سِيَاقَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ مُطْلَقَةً وَمُقَيَّدَةً: فَالْمُطْلَقُ مَا لَمْ يُوَصَّلْ لِدَلَالَتِهِ بِأَيِّ حَرْفٍ مِنَ الْحُرُوفِ، بَلْ مُبَاشَرَةً كَانَتْ دَلَالَتُهُ عَلَى "الْكَمَالِ وَالْتِمَامِ" لَمَّا بَلَغَ أَشَدَّهُوَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الْقَصَصُ: 14). وَالْمُقَيَّدُ كَمَا مَرَّ أَنْفًا، مَرَّةً بِـ (عَلَى)، «وَاسْتَوَى عَلَى الْجُودَى» (هُودُ: 44) أَيْ: اسْتَقَرَّتِ السَّفِينَةُ عَلَى الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِالْجُودَى، وَمِنْ اسْتَأْنَسَ لِذَلِكَ بِقَوْلِ الْأَخْطَلِ:

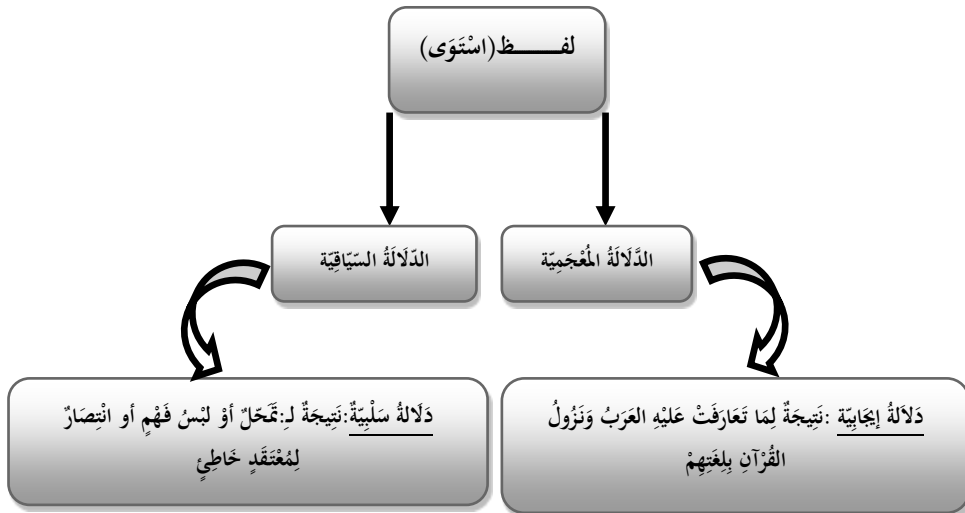
قد استوى بشرٌ على العراق ... بغير سيف ودمٍ مهراق

يقول في ذلك الطاهر بن عاشور "وَأَرَاهُ بَعِيداً، لِأَنَّ الْعَرْشَ مَا هُوَ إِلَّا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَلَا وَجْهَ لِلْإِخْبَارِ بِاسْتِيْلَائِهِ عَلَيْهِ، مَعَ احْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ الْأَخْطَلُ قَدْ انْتَزَعَهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَقَدْ قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ : إِنَّ مَعَانِيَهُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ تَعْدِيَّتِهِ بَعْلَى أَوْ بِإِلَى، قَالَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ مُجَاهِدٍ : اسْتَوَى : عَلَا عَلَى الْعَرْشِ، وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ : اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ارْتَفَعَ فَسَوَى خَلَقَهُنَّ"³² وَأَضَافَ التَّعْدِيَّةَ بِ(عَلَى) فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : "كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَنَظَائِرِهَا فَهُوَ مُسْتَعَارٌ مِنْ مَعْنَى الْإِعْتِلَاءِ، مُسْتَعْمَلٌ فِي اعْتِلَاءٍ مَجَازِيٍّ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى التَّمَكُّنِ"³³، وَ مَرَّةً بـ: (إِلَى) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ (البقرة: 29) "عَمَدَ إِلَيْهَا وَقَصَدَ...وَالِاسْتَوَاءُ هُوَ الْعُلُو، وَالْعُلُو هُوَ الْارْتِفَاعُ"³⁴، بَلْ إِنَّ أَوَّلَى الْمَعَانِي بِقَوْلِهِ: "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَاهُنَّ"، "عَلَا عَلَيْهِنَّ وَارْتَفَعَ، فَدَبَّرَهُنَّ بِقُدْرَتِهِ، وَخَلَقَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ. وَالْعَجَبُ مِمَّنْ أَنْكَرَ الْمَعْنَى الْمَفْهُومَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِ اللَّهِ: "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ"، الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى الْعُلُو وَالْارْتِفَاعِ، هَرَبًا عِنْدَ نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَلْزِمَهُ بِزَعْمِهِ -إِذَا تَأَوَّلَهُ - أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا عَلَا وَارْتَفَعَ بَعْدَ أَنْ كَانَ تَحْتَهَا"³⁵، فَالتَّعْدِيَّةُ لِلْفِظِّ بِإِلَى هُوَ الْقَصْدُ أَيْ عَمَدَ وَقَصَدَ إِلَيْهَا عُلُوًّا سَبْحَانَهُ يَلِيْقُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الخاتمة:

يمكن حوصلتها ما وصلنا إليه في نقاط هي: (مع الرسم التوضيحي)

- أن الدلالات اللغوية للفظ (استوى) ذات معانٍ شتى في استعمالات العرب، والقرآن قد استعمل تلك الدلالات حسب سياقاته المتواردة في نصوص الآيات فمرة بدلالة العلو بشكل عام أما في ذات الله فيلحق بذااته سبحانه وتعالى ، ومرة بالقصد وأخرى بالاستقرار.



- دَخُضَ الدَّلَالَةُ السَّلْبِيَّةَ لِلْفُظِّ (اسْتَوَى) الَّتِي لَحِقَتْ بِهَا مِنْ خِلَالِ فَهُومٍ خَاطِئَةٍ اعْتَمَدَتْ التَّمَحَلَّ أَوْ هَوَى فِي تَخْرِيجِ دَلَالَتِهَا أَوْ لَمْ تَتَّبِعْ مَا نُقِلَ عَنِ الْعَرَبِ الْأَقْدَمِينَ.
- لُفْظُ (اسْتَوَى) جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ وَكَذَا اسْتِعْمَالَاتُهُ فِي الْقُرْآنِ ؛ مُطْلَقًا وَمُقَيَّدًا بِـ (إِلَى) وَ (عَلَى)،
- وَالِاسْتَوَاءُ فِي كَلَامِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ وَالْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِي الِارْتِفَاعِ وَالِاعْتِلَاءِ وَذَاكَ مُحْصَلُ دَلَالَتِهِ تَعْدِيهِ بِـ (عَلَى).
- وَالِاسْتَوَاءُ لَهُ مَعَانٍ مُتَفَرِّعَةٌ (هَامِشِيَّةٌ) عَنْ حَقِيقَتِهِ، أَشْهَرُهَا الْقَصْدُ وَالِاعْتِلَاءُ، وَقَدْ التَزَمَ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْقُرْآنِ مُسْنَدًا إِلَى ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ عِنْدَ الْإِخْبَارِ عَنْ أَحْوَالِ سَمَاوِيَّةٍ، كَمَا فِي هَذَا الْآيَةِ. وَنَظَائِرُهَا سَبْعُ آيَاتٍ (كَمَا صَرَحَ بِذَلِكَ الْعَلَامَةُ ابْنُ عَاشُورَ فِي تَفْسِيرِهِ)
- يَجِبُ مَرَاعَاةَ التَّحْلِيلِ الصَّحِيحِ لِأَلْفَافِ الْقُرْآنِ كَيْ لَا يَحِيدَ الْمُحَلِّلُ عَنْ مُرَادِ الشَّارِعِ الْحَكِيمِ وَذَلِكَ بِالْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَالْمَعَاجِمِ وَكُتُبِ الْغَرِيبِ وَمَرَاعَاةِ كُلِّ آيَاتِ التَّحْلِيلِ.

الهوامش:

- 1- علم الدلالات التطبيقية، هادي نهر، ص. 236.
- 2- البرهان في علوم القرآن، الرزكشي، 2/ 218.
- 3- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص. 316.
- 4- علم الدلالات، منقور عبد الجليل، ص. 25.
- 5- لسان العرب، لابن منظور، 408/14. المصباح المنير، الفيومي، 1/ 298.
- 6- مختار الصحاح، الرازي، 156، تهذيب كتاب الأفعال لابن القوطية، لابن القطاع الصقلي، 2/ 56.
- 7- تهذيب اللغة، الأزهري، 4/ 340.
- 8- مقاييس اللغة، بن فارس، 3/ 112.
- 9- البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص. 213.
- 10- المعجم الوسيط، 1/ 967.
- 11- لسان العرب، 1/ 201.
- 12- زاد المسير في علم التفسير، بن الجوزي، 3/ 213. لكل بيت شاعر
- حتى استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهابق (بإضافة حتى في أول الشطر الأول).
- همما استويا بفضلهما جميعا ... على عرش الملوك بغير زور.
- 13- فتح القدير، الشوكاني، 1/ 95.
- 14- تفسير أبي السعود، 4 / 340.
- 15- الفروق اللغوية، العسكري، ص. 173.
- 16-، معاني الأبنية، السامرائي ص 93.

- 17- الفتح القدير ، الشوكاني، 103/3
- 18- جامع البيان ، الطبري، 55/1 .
- 19- معاني الأبنية، ص: 93 .
- 20- مقاييس اللغة، 216/4
- 21- شرح ابن عقيل، 23/3.
- 22- المقاييس، 517/4.
- (*)- درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي، ص21-21
- 23- المقاييس ، 246/4. لسان العرب ، 320/2
- 24- المعجم الوسيط ، 87/2.
- 25- الجامع الصحيح المختصر، البخاري، 560/2. برقم 1470.
- 26- مفردات ألفاظ القرآن ، الأصفهاني ، 519./1
- 27- نفس المصدر والصفحة.
- 28- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ، 162/2؛
- 29- لسان العرب ، 408./14
- 30- العلو للعلي الفخار ، الحافظ الذهبي ، ، ص159 هو تاريخ دمشق، 33./297.
- 33- العلو للعلي الفخار ، الحافظ الذهبي ، ، ص160؛
- 32- التحرير والتنوير ، 164/8.
- 33- نفس المصدر والجزء والصفحة.
- 34- جامع البيان ، 429./1
- 35- نفس المصدر ، 430/1.

- المراجع

• القرآن الكريم

- 1- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، (د، ط)، (د، ت).
- 2- البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، عالم الكتاب القاهرة، ط: 6، 1988.
- 3- البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الرزكشي، تقديم وتعليق مصطفى عبد القادر، دمشق، 2005 .
- 4- تاريخ دمشق ، علي بن الحسن (ابن عساكر)، تح: عمرو بن غرامت، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط: 1995.
- 5- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط: 1984 .
- 6- تهذيب كتاب الأفعال لابن القوطية أبو القاسم علي بن جعفر السعدي المعروف بابن القطاع . دار النشر ، عالم الكتب ، بيروت ط: 1، 1403 هـ 1983 م
- 7- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهرى تح : عمر سلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ط1 2001.

- 8- الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل البخاري، تح: مصطفى البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط 3، 1987 .
- 9- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الاسكافي، دار الآفاق الجديدة - بيروت، (د ط)، (د ت).
- 10- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 3، 1404.
- 11- شرح ابن عقيل، بن عقيل الهمداني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق، ط 2، 1985.
- 12- علم الدلالة (أصوله ومباحثه في التراث العربي)، منقور عبد الجليل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د ط)، 2002.
- 13- علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، الدكتور هادي نهر، الأردن، 2007 .
- 14- العلو للعلي الغفاري، أبو عبد الله الذهبي، تح: أشرف عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط 1، 1995.
- 15- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلوم والثقافة القاهرة، (د ط)، (د ت).
- 16- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم (ابن منظور) دار صادر، بيروت، (د ط)، (د ت).
- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسن عمر، عالم الكتاب، ط 5، 1427 - 2006 71
- 18- مختار الصحاح، زين الدين الرازي، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموجية، بيروت، صيدا، ط 5، 1420 - 1999.
- 19- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد المقرئ الفيومي، المكتبة العلمية بيروت، (د ط)، (د ت).
- 20- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات، حامد عبد القادر ومحمد النجار. تح: مجمع اللغة العربية، (د ط)، (د ت).
- 21- معاني الأبنية، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، ط 1428 - 2007.
- 22- مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد بالراغب الأصفهاني، دار النشر، دار القلم - دمشق، (د ط)، (د ت).
- 23- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تح: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر، ط 1399 - 1979.